رحله إلي الواحة المرصودة

أَغْمَضَ الشَّيْخُ عَيْنِيَّه وَرَاح فِي صَمْتٍ عَمِيق

ظَنُّوهُ فِي غَفْوَةٍ وَانْتَظَرُوا أَنْ يُفِيقَ

وَحِينَ طَالَ الصَّمْتُ تَكَلَّمُوا بِصَوْتِ خفيض

يَا شَيْخِنَا لَقَدْ أَسْعَدْتَ بِحَدِيثِكَ قُلُوبِنَا

وَجَلَلْتُ بالحكمة عُقُولِنَا

وَلَكِنَّ أَلَنْ تُخْبِرُنَا يَا شَيْخُنَا زَهْرَانَ

مَاذَا حَدَثَ إِذْ خَرَجَتْ أُمُّ الغِلْمَانِ مِنْ أَرْضِ كنعان؟

وَمَاذَا حَدَثَ لِهُمْ فِي الطَّرِيق

وَهَلْ أَدْرِكُوهُمْ أَمْ وَصِلُوا بِسَلَامٍ؟

وَمَاذَا صَنَعَتْ بِهِمْ الأَيَّام

ضَحِكَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وَقَالَ أَكَثُرْتُمْ مِنْ الكَلَامِ

فَدَعُونِي أَلْتَقِطُ الأَنْفَاسَ

فَانَّا شَيْخٌ كَبِيرٌ

قَالُوا أَعْذَرْنَا فَكَلَامُكَ يمس فينا وترا حساس

قَالَ إِن غَدًا لَنَاظَرَه قَرِيب

وَلِنَّا مَوْعِدٌ بَعْد المُغَيَّب

وَاِفْتَرَقُوا وَكُلّ إِلَى بَيْتُه سَار

وَرَاحُوا يُفَكِّرُونَ فيمَا تَحْمِلُهُ قِصَّةُ شَيْخِهِمْ مِنْ حكْمٍ وَأَسْرَارٍ

وَأَتَى اليَوْم الجَدِيدُ وَتَسَارَعَتْ السَّاعَاتُ

وَاِجْتَمَعُوا بَعْدَ الصَّلَاةِ

وَقَالُوا يَا شَيْخِنَا هَاتِ مَا عِنْدَكِ مِنْ الحِكَايَاتِ هَاتِ

قَالَ صِلُوا عَلَى خَيْرِ الأنام

وَاِسْمَعُو وَأَنْصِتُو لِلكَلَامِ.

تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ عَلَى سَفَرٍ وَقَدْ يَسرُّ اللهُ لِهُمْ الطَّرِيقَ. وَرَاحِتْ تَمْرَ رِحْلَتِهِمْ بلاعائق أَوْ ضِيق

وَقَدْ مَرَّ عَلَى رَحِيلِهِمْ أيام و أَيَّامٍ

بَلًا عَوَائِق وَبِسَلَامٍ

وَبِرَغْمِ أَنَّهُمَا فِي الصَّحْرَاءِ إِلَا أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ غَيْرَ حَارِقَةٍ

وَالهَوَاءُ يُدَاعِبُ الخِيَامَ بَرْقُهِ فَائِقَةٌ

وَسَأَلَ الصَّبِيّ أَمِيرَ قَائِدِ القَافِلَةَ: مَتَى الوُصُول قَالَ أَمَامَنَّا شَهْرٌ وَبِضْعُ أَيَّامٍ مِنْ المَسِيرِ
واعلم أن تلك الرحلة فيها أمر غريب
فهناك عمامة ترافقنا على طول الطريق تحمينا من الطريق كأنها حجاب
قال أمير إن الله للدعاء مجيب

وَرَاحَتْ تَسِيرُ بِهِمْ الركائب كَأَنَهَا تَطِير

وَقَدْ مرْ شَهْرٌ بِالكَامِلِ وقد طويت لهم الارض وفى أمان َالرَّكْب يسير

وَكَأَنَ اللَّيْل فِي أَوْلِه

وَقَدْ حَطُّوا الرُّحَالُ وَ أَطْلَقُوا النفير

أقبل َعليهَمَّ رئيس القَافِلَةَ وَ أَلَقَى عَلَيْهُمْ التَّحِيَّةُ وَبَادَرَ عَنْ حَاتِمَ بِالسُّؤَالِ؟

قَالَتْ: وَاللهِ الحَال كماهو الحَال

قَالَ عِنْدَي أَمْرٌ يَا أُمٌّ الغِلْمَانُ

قَالَتْ هَاتِ مَا عِنْدَكِ من طيب الكَلَامَ

قَالَ هاك رِسَالَةً مِنْ رئيس القَوَافِل بِكنعان.

فَتَحَتْ الرِّسَالَةَ وَكَانَتْ كالآتِي

مِنْ الريس (سَعْدُونُ)

إِلَى عَائِلَةِ حَاتِمَ المُتَّهَم بِالجُنُونِ

بَعْدَ التَّحِيَّةِ والسلام والكثير من الاِحْتِرَام

أَرْجُو أَلَا تجَزِّعُونَ

حِينَ تَعْلَمُوا أَنَّنَا عَلَى سِرِّكُمْ مُطَّلِعُونَ

فَحِينَمَا أَتَيْتُمُونَا لِلمَرَّةِ الأَوَّلِ لَمْ أَعْرِفْكُمْ

وَحِينَ دَفَعْت المَالَ كَانَ بِخنْصُرِك خَاتِم مُمَيِّز وَقَدْ اِشْتَرَاهُ حَاتِمُ مِنْ سَنَوَاتٍ

وَكُنَّا سَوِيًّا فِي أَحَدِ الرِّحْلَاتِ
وقد أعطته له أحد العرافات

وَقَدْ تَذَكَّرْتُهُ فَعَلَيْهِ نَقْشُ سومري غَرِيبٌ

وَكَانَ فِيهُ شِئ مُلَفِّتٌ إذ أنه فى الظلام يطلق ضوءاعَجِيبا

قِلَّتُ عَلَكِ حِينَ اِشْتَدَّ الكُرَبُ بعتيه.

وَحَيِّن أتِيَتَ فِي المرة الثَّانِيَةِ على أنكِ زوجة حاتم عَرَفْت أَنَّكَ هِيَ فقد كنت ترتديه وَتأكدت أن هُنَاكَ أَمَرَ تمكريه

فَ اِسْتَفْسَرْت عَنْ أَحْوَالِكُمْ وَعَرَفْتُ مَا أَنْتُمْ فِيه

فَغَيَّرَت لِكُمْ إذا وافقتم التَّدْبِيرُ

سَأُرْسِلُكُمْ إِلَى وَادِ وهو فى قرار مكين

أَوْ كَمَا نُسَمِّيهَا وَاحَةً اللَّازِمَانِ واللامكان

وَهِيَ فِي مَكَانٍ فَرِيد فَلَا تَسْأَلُوا عَنْ العُنْوَانِ

وَأَرْجُو أَنْ تقَبلُوا هَذَا التَّغَيُّر

وَأَتَمَنَّى أَنْ أُكَوِّنَ قد أحْسَنْتَ لِكُمْ التَّدْبِير
ولى رجاء أرجو أن تعطى خاتمك لابنك أمير
ولهذا قصة وحين نلتقى سيكون لكم مني التفسير

إرْسِلِي لِزَوْجِكَ تَحِيَّاتِي. وَأَخْبِرِيهُ أَنَّي لَا أَنْسَى الجَمِيلَ

وَهُوَ خَيْر مِنْ صُنْعِ الجَمِيل

فَقَدْ اِقْرِضْنِي مَالا حِينٍ اِحْتَجْتُ

وَأَرَدْتُ إِرْجَاعُهِ حَيِّنَ عُدَّتِ

عَرَفْتُ مَا وَصَلَ لَهُ الحَالَ

وَهَا أَنَا أُرْسِلُ مَعَ الرِّسَالَةِ المَالَ

وَأَرْجُو أَنْ تخْرِجُوا مِنْ القَافِلَةِ مَعَ الحَادِيِ عنُدَ انتصاف اللَّيْل

سَيَذْهَبُ مَعَكُمْ وَهُوَ لِكُمْ خَيْرٌ دَلِيل

وَاِعْلَمُوا أَنَّ دَرْبَهَا عَسِير وَيَسْكُنُ فِيهَا مَنْ سَئِمَ الزَّيْفُ وَيَبْحَثُ عَنْ التَّغيير

وَإِنْ رَفَضْتُمْ فَلَا لَوْمَ عَلَيْكُمْ وَلَا تَثْرِيبَ

وَاِعْلَمُوا إِنى سَأَلْقَاكُمْ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ عَنْ قَرِيب. وَلَكِنَّ هُنَاكَ شَرْط لِتِلْكَ الوَاحَةِ

لَا يُخْبِرُ أَحَدَ عَنْ بَلَدِهِ وَلَا يَسْأَلُ غَيْرَه عَنْ قِصَّتِهِ

فَكُلٌّ يَحْكِي وَقْتَمَا يَشَاء بِإِرَادَتِهِ

فَشَرَطْنَا أَنْ نَنْسَى مَا كَانَ

وَنَفَر مِنْ ظُلْمِ الإِنْسَان لِأَخِيهِ الإنسان

وَسَتَلْتَقُونَ شَيْخًا هُنَاكَ جَلِيل

وَسِيدَلَكُمْ عَلَى مَا تُرِيدُونَ وَهُوَ خَيْرٌ دَلِيل

وَقَدْ أَرْسَلْتُ لَهُ رِسَالَةً وَهَذَا آخَر الكَلَامِ

وَالسَّلَامُ خِتَامٌ

نَظْرَت وَفَكَّرَتْ وَجَلَسَت مَعَ حَاتِمَ وَالغِلْمَانِ وَ أَوْجَزَتْ الكَلَامَ

وَقَالَتْ لِكُمْ الخِيَارُ أَمَّا وَادِّي الأَحْلَامَ وَقَدْ تَصِلُ أَيْدِيَهُمْ لِنَّا

أما الواحة وَأَنَا أَصْدَق الشَّيْخِ فَهُوَ مِنْ الكِرَامِ

نَظَرَتْ لِزَوْجِهَا وَالعُيُون مِرْآة لِلقُلُوبِ وَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُهِ أَكْثَرَ رَاحَةً وَأَمَانٍ

فَعَرَفْت أَنَّهُ يَعِي مَا تَقُول وَأَنَّ أَوَانَ عَوَّدْتَهُ لِلحَيَاةِ قُدٌّ آنْ

قَالَ أَمِيرُ مَعَكَ يَا أُمِّي وَاِعْتَقَدَ وَالواحَةً أَفْضَلَ. وَأَنْتَ ياسمير، مَعَكَ وَمَعَ أَمِيرَ

أُمِّي نَحْنُ سَوِيًّا فِي السَرَّاءِ وَالضَرَّاءِ

فَقَدْ يَكُونُ الغَيْرُ مَعْلُومَ أَكْثَرَ أُمَّانِ وَأُرَحِّب أَرْضًا مِنْ المَعْلُومِ

قَالَتْ إِذَن فَلِنَتَوَكَّلْ عَلَى الَّذِي لَا يُغْفِلُ وَلَا يَنَامُ

خَرَجْتُ إِلَى حَادِّي الرُّكَب وَقَالَتْ مَتَى نَسِيرُ

قَالَ نَدَّعِي عِنْدَ اِنْطِلَاقِ الرِّحْلَةِ أَنَّ شَيْخَكُمْ مَرِيض لَا يَتَحَمَّلُ المَسِيرُ

سَنَنْتَظِرُ بَعْضَ الوَقْتِ

وَحِينَ يَبْتَعِدُ الرَّكْبُ وَيَخِف الغُبَارَ

سَنَتَوَكَّلُ عَلَى كَاتِمِ الأَسْرَارِ

وَجَاءَ الصُّبْحَ الجَدِيدَ وَقَدْ رَحَّلْتَ القَافِلَةَ لبعيد

وَقَالَ الحَادِي هَيَا فَأَمَامَنَّا طَرِيقٌ وَعْرٌ بِرَغْمِ أَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ

نَظَرَ أَمِيرٌ وَتَسْاءلُ: إِلَى أَيْنَ ؟!

وَلَا طَرِيقَ إِلَا مَا سَارَتْ بِهِ القَوَافِلُ

أَمَّا إِنْ هُنَاكَ طَرِيقٌ آخَر وَعُنّه أَنَا غَافِلٌ

فَتَبَسَّم: بَنِي صَبْرٌ جَمِيلٌ
والتفت يا أم الغلمان إلبسى أمير الخاتم
فهذا الخاتم مرصود له خادم
وقد أعطته العرافه لأبيه
وقالت: إن إبنك الكبير سيرشدكم به وهو من يجب أن يرتديه

هَلُمُّوا نَسِيرُ

وَتُحَرِّكُ الرَّكْبَ إِلَى الجِبَالِ وَقَدْ أَرْهَقَهُمْ المَسِيرُ

وَتَحَرَّكْت فِي رَأْسِ آلَامِ الظُّنُونِ.

هَلْ هُوَ أَهْلُ للثقة أَمْ أَنَّهُ قَدْ يَخُونُ؟

وَفَجْأَةً وَبَعْدَ نِصْفٍ يَوْمً أَوْ يَزِيدُ تَكَشَّفَ لِهُمْ طَرِيقُ مِنْ العَدَمِ ظَهْر لِلعُيُونِ

وَكَانَ فِي مَكْمَنٍ كَأَنَّهُ الدُّرّ المَكْنُونُ

وَقَالَ الحَادِي اِتَّبِعُونِي وَإِيَّاكُمْ أَحَدٌ عَنْ الدَّرْبِ يُحَيِّدُ

وَرَاحُوا يَسِيرُونَ فِي خَطٍّ ذُى تَعَرُّجٍ شَدِيدٍ

صُعُودا وَهُبُوطًا وَدَوَابُّهِمْ خَلْفَهِمْ بِقُوَّةٍ يحزبون

قَدْ كَانَ الطَّرِيقُ ضَيَّقَا وَهَمَ بِبُطْءٍ يَتَقَدَّمُونَ
وقد تقدم أمير وكان لخاتمه نور يضىء الطريق
وعلى دربه يسيرون

وَبَعْدَ وَقْتٍ تَسَلَّلَتْ الشَّمْسُ تَزَيحُ الظَّلَامِ وتهدىء الظُّنُونُ
وَتَتَسَلَّقُ السَّمَاءَ

وَحَمِدُوا اللهَ أَنَّ هَذَا الوَقْتُ مِنْ العَامِ شِتَاءً

وَبَعْدَ جَهْدٍ جَهِيد ظَهَرَ طَرِيقٌ مُتَّسِعٌ مِنْ بَعِيدٍ

وَعَادَ الطَّرِيقُ يَسْتَوِي وَشَعَرُوا كَأَنمَا كَتَبَ لِهُمْ عُمْرَا جَدِيدا
وَلَمْ يَتَوَقَّفُوا حَتَّى أَقْبَلَ اللَّيْلُ الجَدِيدُ

وَاِلْتَفَتَ الحَادِي وَقَالَ سَنُشد هُنَا الخِيَامَ

وَنَتَّخِذُهُ مَقَرًّا لِلمَنَامِ. وَغَدًا نَصِلُ بِسَلَامٍ

وَقُبَيْلَ الشُّرُوقِ رَاح يُنَادِي شَدُّوا الرِّحَّال

لَقَدْ قُرْبَ المَنَالِ

وَفَجْأَةً تحَوِّل الصُّعُودُ إلى هُبُوطٍ

وَكَانَ سَرِيعًا اِسْتَمَرَّ سَاعَة أَوْ يَزِيد

وَفَجَّأة ظَهَرَتْ رُؤسُ أَشْجَارٍ مِنْ بَعِيدٍ

تُعَانِقُ السَّمَاء

وَيَتَسَلَّلُ النُّورُ مِنْ بَيْنِ فُرُوعِهَا

كَأَنَّهُ نَسَجَ حَرِير يُحِيطُ دُرُوبَهَا

مَا هَذَا الجَمَالُ مَا أَرْوعَهَا مِنْ وَاحِة غِنَاءٍ

وَتَدَفَّقْت فِي عُرُوقِهِمْ الدِّمَاءِ

أُصْبِح الطَّرِيق يَسِير بِلَا عَنَاءٍ

وَوُصُول عِنْدَ مُنْتَصَفِ النَّهَارِ

يَأْلُهَا مِنْ أرض منبسطة أشْجَارٍ بَاسِقَةٍ مُزْهِرَةٍ وَفَاكِهَةٍ وَرُطَبًا تَتَسَاقَطَ مِنْ النَّخِيلِ

وَنَبع مَاء جَارِ سَلْسَبيل

وَعَلَى صَوْتِ النَّسِيمِ العَلِيل الزُّهُور تَمِيل

وَأَشْخَاصٌ يَسِيرُونَ وَيَجْلِسُونَ يَحْصُدُونَ وَبِجدٍّ يَعْمَلُونَ وَنِسَاءٌ يعْدُونَ الطَّعَامَ وَأَطْفَالٌ يَمْرَحُونَ

وَرَاحُوا يَتَقَدَّمُون بِكُلِّ هَمّة وَقَدْ أَصْبَحَتْ الرائي وَاضِحَةٌ لِلعِيَانِ

وأصبحواعلي مَشَارِف المَضَارِبِ الآنَ

وَلَكِنَّ أَغْرَب شِي لَا خيام ولا مَنَازِل بِهَا يَسْكُنُون

أين يعش أهل الوادي وأين يبيتون

تَرْكهُمْ الحَادِي وَقَالَ أَنيخُوا الجَمَالُ وَأَفْرَغُوا الأَحْمَالَ وإياي فانتظرون

وَغَاب وَقْتٌ لَيْسَ بِقَصِّير

وَعَادَ مَعَهُ، شَيْخٌ كَبِيرٌ

بِوَجْهِ مُنِير وَلِحَيِّهِ بَيْضَاء

وَعُيُون زَرْقَاء وَبِشَرَّةٍ شهباء

حَيَّاهُمْ أَفْضَل تَحِيَّةً وَتَقَدَّمَ إِلَى حَاتِمَ فَنَظَر لَهُ وَلَمْ يِجِب. وَهَزَّتْ لِلشَّيْخِ رَأْسَهَا فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى وَجْهِهِ أَيُّ شُعُورٍ غَرِيبٍ. وَالْتَفَتَ عَنْهِمْ حَاتِمُ ثُمَّ سَار. وَرَاح يَتَفَقَّدُ الجِوَار.

تَقَدَّمَتْ أُمّ الغِلْمَانِ

وَبَدَأْت الكَلَامَ بِإِلْقَاءِ السَّلَامِ

قَالَتْ يَا شَيْخِنَا اِعْتَذَرَ فَزَوْجِي مَرِيض

قَالَ لاتثريب عَلَيْكُمْ صبرا فَالإِيمَانُ بِاللهِ خَيْر طَبِيب

بِوَاحَتِنَا لَا يُوجَد عَلِيلٌ ، سَيَمُنُّ اللهُ عَلَيْهِ بِالشِّفَاءِ

اِعْذِرْنِي هلا أخبرتنا يَا شَيْخِنَا الجَلِيل

أَيْنَ نَحْن الآنَ وَمَا مَوْقِعُ واحتكم مِنْ خَارِطَةِ المَكَانِ؟

قال: أُتْرُكُوا هَذَا سيجيب عَنْهُ الوَقْتُ فَلِكُلِّ شِئ أَوَانٍ

قالت :جِئْنَاكُمْ بِوَصِيِّهِ مِنْ الشَّيْخِ سَعْدُون

قَالَ: مَرْحَبًا بِكُمْ فِي أَرْضِ الأُمَّان

أَرْض اللامكان واللا عُنْوَانٌ

حَيْثُ المَظْلُومِينَ مَنْ يَبْحَثُونَ عَنْ مَلْجَأٍ وَمَلَاذً
وهي واحة رصدت من زمن الأولين
حين كان ما تحت الأرض ومافوقها مختلطين
فتعجبوا فقال كونوا من الصابرين

قَالَتْ أُمُّ الغِلْمَانِ لَقَدْ عَصَفَتْ بِنَا الحَيَاةُ حَتَّى أَنَّ زَوْجِي بالبيمارستان لازال

قال لِتَجْلِسُوا للراحه وَاتَتْهُمْ أَحَدُ النِّسَاءِ بِمَاءِ زُلَالٍ.

فَشَرِبُوا وَارْتَوَا وَالْتَفَتَ الشَّيْخُ وَبَدَأَ بِالسُّؤَالِ.

أَخَبِّرُونِي قِصَّتُكُمْ أَنْتُمْ الآنَ

أَنْصَتَ بهدوء. ثُمَّ قَالَ سَبِّحَانٍّ مِنْ عِلْمِ الإِنْسَانِ فَفَسَدَ وَظُلْم وَخَانَ

قَصَّتكُمْ قِصَّةُ مَلَكٍ أساء اِخْتِيَار اِلْمَعِيه

أَمَّا قِصَّتَيْ قِصَّةِ سُلْطَانَ ظَنٌّ أَنَّهُ مَلَك البِلَاد وَالعُبَّاد

وَقَدْ كَانَ ظَلَمَ البشر له غيه

مَا هِيَ قِصَّتُكِ يَا شَيْخِنَا وَقِصَّةُ تِلْكَ الأَرْضِ النَّدِيَّةِ؟

قَالَ لِكُلِّ مَقَامٍ مُقَالٍ فَلِتَسْتَقِرُّوا ثُمَّ يَكُونُ حِوَارا وَمَقَالٍ.

أَيْنَ يَا شَيْخِنَا سِيكُونَ المَبِيت

قال أمير أَرَى وَادٍ كَأَنَّهُ الجَنَان زَرْعٌ وَمَاءٌ وَرَعْيُهِ وَرَعِّيَان

وَأَنْعَامٌ وَأَطْفَالٌ يَمْرَحُونَ وَحِسَان

وَلَكِنَّ لا بيوت وَلَا خِيَامَ فَأَيْنَ يِكُون المَبِيتَ

قَالَ الشَّيْخُ إِنَّ بُيُوتِنَا لَا تَظْهَرُ لِلعِيَانِ

فَلَيْسَ كُل. وَادٍ ذِي زَرَعَ يصلح لِلسُّكَّانِ

فَنَهَضَ وَنَهَضْتُ وَنَهَضَ الصِّبْيَان

وَقَالَتْ أَيْنَ حَاتِمُ وَمَدَّتْ يَدَهَا وَقَالَتْ هَيَا يَا أَبَا الغِلْمَان
ولنتمنىَ أن يعودَ الزمان رخاء كما كان

وَسَارْ الشَّيْخُ وَصعد تَبِّة كَانَتْ عَلَى مَرْمِيِّ البَصَر

قَالَتْ يَا شَيْخُنَا ألا تخشي أنْ يَصِل عَنْ وَاِحْتَكَمَ خَبَر

قَال إنْ لَهَا قَصَّة وَهِيَ مَخْفِيَّةٌ عَنْ مِنْ نَظَرٍ

وَظَهْر دَرْبٌ مَخْفِيٌّ وَالصُّعُودُ إِلَيْهُ يسير

وَجِدُوا بَعْض الوَقْتِ فِي المَسِيرِ

وَظَهَرَ لِلعِيَانِ فَتَحَه فِي الجَبَلِ وَحِينَ تَقَدَّمُوا وَجِدُو مِثْلَهَا فَتْحَتَين

قَالَ هُنَا يَكُونُ المَقَرُّ وَلَا تَظُنُّوا أَنَّ السَّعَادَةَ بالقصور إنها فقط بالسُكَّان

قَالَ أَمِير لَما لَا نَنْصِبُ خياما فِي بَطْنِ الواي وَنَنَام

يَابَنِي اعْلَم أَنَّ هَذَا مُمْكِنٌ فِي بَعْضِ العَامِ

وَلَكِنَّ نَحْنُ نَزْرَعُ وَنَحْصُدُ وَنَطْبَخُ وَنَأْكُلُ هُنَاكَ

حَتَّى يَأْتِيَ مِيعَادٌ المُطُرَ. فَنَجْمَعُ عَلَى عِجْلِ المَحْصُولِ

وَكُلٌّ مِنَّا عَنْ عَمَلِهِ مَسْئُولٍ

فَيَكُونُ فِي الكَهْفِ الكَبِيرَ المَخْزُونَ

وَيَتَحَوَّلُ الوَادِي إِلَى بُحَيْرَةِ مَاءٍ

إِذْ تَسْتَقْبِل كُلُّ مَمَرَّاتِ المطر فتمتلأ الآبار حتى لا يضيع كل هذا هباء

وَنَنْتَظِرُ هَاهُنَا شَهْرا أَوْ يَزِيدُ حَتَّى تَغُيض فِي بَاطِنِ الأَرْضِ. وَيَجْفُ الوَادِيَ وَتَرَفَّعَ عَنَّا مَاءَها السَّمَاءِ

وَتَجف الدُّرُوبُ فتزهر الأرض ونَعُود لِسِيرَتِنَا الأُولَى

وَنَزْرعٌ وَنَحْصُدُ. وَهَكَذَا دَائِرَةُ الحَيَاةِ

وَهُنَا سَيَكُونُ بَيْتكُمْ وأشار إلى مكان فى الكهف الكبير اِسْتَقْطَعُوهَا وَكَمَا تشاءون رتبوه

أَتَتْهَا النِّسَاءُ مُرَحِّبَاتٍ وأَكْثُرْنَ مِنْ الهَدَايَا

شَكَرَتْهُن وَأَسْهَبَتْ فِي التَّقْدِيرِ وَقَبِلَتْ مِنْهُمْ العطايا

بِرَغْمِ أَنَّ بَيْتَهُمْ كَانَ جُزْءًا مِنْ كَهْفٍ فِي الجَبَلِ

إِلَا أَنَّهُ كَانَ لِهُمْ قَصْرا لِإنهُ كَانَ مَفْرُوشا بِالأَمَلِ

وَرَاحِتْ أُمُّ الغِلْمَانِ تَصْنَعُ مِنْهُ بِيتا جَمِيلا بإتقان وبلا عجل فقد كان الكهف مصاطبا ودرجات متفاوتة المساحات هُنَا متكأ. َهُنَا مَنَامُة لِلصِّبْيَانِ وَهُنَا تَصْنَعُ الطَّعَامَ

وَقَدْ رَسَمْت فِي خَيَالِهَا الأَحْلَامِ

وَخَرَجْت وَجَدَتْ الصَّبِيَّةُ يَمْرَحُونَ وَيَضْحَكُونَ

وَزَوْجُهَا جَالَس مَعَ الرِّجَالِ بِلَا كَلَامٍ

وَتَنَهَّدْت وَتَمْتَمْت مَتَى تَطِيرُ أَيُّهَا الطَّائِرُ المَسْجُون

مَتَى تَخَلَّعَ رِدَاء التخادل؟

وَتَعَوَّدَ ذَاكَ الزَّوْجُ الحَنُونُ

وَعِنْدَ المَسَاءِ جَلَسَ الجَمِيعُ فِي بَطْنِ الوَادِي عَلَى الطَّعَامِ مَرَحُ وَسُمْرٌ وَجَمِيلُ صَحِبَة وَعَزَف أَنْغَام

وَالْتَفَتَتْ أَمْ الغِلْمَان أَنْتِ يَا شَيْخِنَا مَا قِصَّتُكِ

نُرِيدُ أَنْ تَرْوِيَ لِنَّا حِكَايَةَ الوَاحِة وَحِكَايَتَكِ

قَالَ صَبْرًا سَيَكُونُ هَذَا بَعْدَ قَلِيلٍ

عِنْدَمَا نَفْتَرِشُ الغبراء. وَنَلْتَحِفُ السَّمَاءَ

====

نعود لشيخنا زهران وقد أنهكهه الكلام

نهض الشَّيْخُ زَهْرَان وَقَالَ دَعَوْنِي أَبْنَائِي أَذْهَبُ لِلمَنَامِ

وَغَدًا نَعُودُ لِلمَزِيدِ مِنْ الحكايا وَ الكَلَامِ

قَالُو لَكَ هَذَا يَا شَيْخِنَا فَلتَنْعَم بِجَمِيل الأَحْلَام

وَاللهِ يَا شَيْخِنَا لَقَدْ تَخَفَّفْنَا مَعَكَ مِنْ هُمُومِنَا وَنَظَرِنَا لَهَا مِنْ بَابِ الفَرَجِ لَا بَابَ الضِّيقِ

وَقَامَ الجَمِيعُ وَكُلٌ مِنْهُمْ اِتَّخَذَ لِبَيْتِهِ طَرِيق

==========

وَجَاءَ اليَوْمَ الجَدِيدُ إِذَ الصُّبْحُ لَاحَ

فَتُوكِل الجَمِيعُ عَلَى الفَاتِحِ
. وَاِلْتَقَوا مَعَ الشَّيْخِ زَهْرَان بَعْدَ الصَّلَاةِ

وَقَدْ اِحْتَضَنَ اللَّيْلُ الكُون وَصَوْتَ الكروان صداح

فَجَلَسَ مَعَهُمْ وَقَالَ صِلُوا عَلَى صَاحِبِ الوَجْهِ الصبوح تَرَكْتُكُمْ وَقَدْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَحْكِيَ شَيْخ الوَاحَةِ لِهُمْ قِصَّتَهُ. وَكَيْفَ اِسْتَبْدَلَ بَلَدهُ بِوَاحَتِهِ

جلس وقد اتخذ من العشب متكئا.

وقال إنَّ قِصَّتَيْ قِصَّةٍ مِنْ قِصَصِ الأَيَّامِ

وَنَحْنُ بَشَرٌ نَرْضَى بِكُلِّ مَايكُون حَتَّى لَوْ زَمْجَرَتْ اللَّيَالِي وَصَاحِبَتهَا الغَمَام

عِشْتُ بِبَلَدَيْ وَحِيدا وَقَدْ قَارَبْتُ عَلَى الخَمْسِينَ

فَقِيرٌ لَا أَمَلَ دِينَار وَلَا نَقِيرَ

أَعْمَلُ بِدُكَّانِ عطار. أَتَحَمَّلُ الأَحْمَالَ وَيَخْتَنِقُ صَدْرِي بِالغُبَارِ

وَآخَّرَ اللَّيْلَ أَنَامُ فِي رَكْنٍ مِنْ الدُّكَّانِ فَلَمْ أَكُنْ أَمْلُكَ الدَار

وَكَانَت تأْتِينَا اِمْرَأَة تَأْخُذُ لِوَلَدِهَا دَوَاءًا

حَتَّى أَتَتْنَا ذَات يَوْمٍ وَقْدٍ أَضْنَاهَا البُكَاءُ

اِسْتَقْبَلَهَا صَاحِبُ الدُّكَّانِ. وَقَدْ كَانَ خَلُوقًا إِنْسَانا معطاء

وَعَرَفَ أَنَّ وَالِدَهَا زَادَ عَلَيْهِ الدَّاءَ

وَلَمْ يَعُدْ يُجْدِي الدَّوَاءُ

وَسَأَلْت عَنْ وَسِيلَة لِتَخْفِيفِ الأَلَمِ أَوْ الشِّفَاءِ

فَأَعْطاهَا شيئا قَلِيلا وَقَالَ تَوَكَّلَيْ عَلَى اللهِ

وَقَالَ لَا أَظُنُ أَنَّ وَالِدَهَا سَيَأْتِي عَلَيْهِ المَسَاءَ

وَفِي الصُّبْحِ الجَدِيد أَتَتْنَا دامعة العَيْن تَسْكُنُهَا الأَحْزَانُ
وَطَلَبْت مِنْ صَاحِبِ الدُّكَّانِ المُسَاعِدَةِ فِي دَفْنِهِ فَقَدْ رَحَلَ إِلَى دَارِ الأَمَانِ

وَعَرَفْت أَنَّهُ كَانَ عَامَلا عِنْدَهُ وَقَدْ مَرِضَ

وَلَيْسَ لَهُ قَرِيبا أَوْ وَلِدا.

إِلَا اِبْنَتُهِ وَقَدْ كَانَ اِسْمُهَا وِدَاد

وَبَعْد أَيَّامٍ أَتانى صَاحَب الدُّكَّان

قَالَ أَنْتَ بَيْنَ البَشَرِ وَحِيدا لَا أَنِيس وَلَا إِنْسَانَ

فَلِمَاذَا لَا تَتَزَوَّج مِنْ وِدَادَ

قَلَت العُمَر يَمُرّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا مُرُور السَّحَابِ

وَأَنَا فقير كُلّ مَا أَمْلِكُهُ ذَلكَ البَدَنُ المَخْلُوقُ مِنْ تُرَابٍ
قَالَ هِيَ تَمْلِكُ بِي صَغِير

وَقَدْ قَارَبْتُ الأَرْبَعِينَ

وَأَنْتِ شَارَفْت عَلَى الخَمْسِينَ

فَلِتَعِيشَا سَوِيًّا. سَأَلْت هَلْ تَقْبَل هِيَ بِي؟

قال دَعَّ هذاَ الأمر لي

قَدْ كَانَ وَبنيت بِهَا وَقَدْ بَرِحْت بِهَا الأَحْزَانَ

فَوَعَدْتُهَا أَنْ أَكُونَ لَهَا صنوان

تَزَوَّجِنَا وَقَدْ حَلَا لِنَّا الزَّمَانُ. مَرَّ عَام تَتْبَعُهُ أَيَّامٌ

وَأُصْبِحْ لِي صُبِّيهُ كَحْوَرِ الجَنَانِ

وَبَعْدَ عَامَيْنِ قَالَتْ يَا زَوْجِي سَيَأْتِيكَ طِفْلٌ جَدِيدٌ

حَمَّدْتُ اللهَ كَمْ أَنَا رَجُلٌ سَعِيد

حَتَّى كَانَ مَا كَانَ. فَبِلَادُنَا لَهَا حَاكِمٌ يعْشَقُ المَال

وَيصْمِتُ عَلَى البَاطِلِ وَلَا يَهْتَم بالرعية أَوْ سُوء الأَحْوَالِ
وَكَانَ خَلْف بَيْتِنَا الصَّغِير أَرْض اِشْتَرَاهَا أَحَدُ الأَعْيَان

وَشَيَّدَ قَصْرا وَيُحِيطُ بِهِ أَكْبَر بُسْتَانٍ

وَنَظَرَ لِدَارَنَا وَقَالَ إنهَا قَبِيحَةٌ تَقْشَعِر مِنْهَا الأَبْدَانُ

لاَبُدَّ أَنْ تَجْتَثَّ مِنْ المَكَانِ

وَأَنَا الفَقِيرُ فَكَيْفَ أَعِيشُ بِين الغيلان
فطلاق على امرأة شمطاء تصنع الأعاجيب ولاتملك دينا ولا يمنعها حياء فصورت لى البيت كأنه حفرة من جحيم وأصوات تعوى فى الليل كأنما البيت غابة يسكنها ذئاب وكانت تلك طريقتة من يلومه فلا عقاب ولا حساب

التجأتُ إِلَى القَاضِي

هَمْس فِي أذْنِي أَحَدُهُمْ أُهْدِيهُ هَدْيَة

أه يَا بَشَرٌ وَهَلْ أَمْلِكُ أَنَا الفَقِير حَقِّ عَطِيَّةَ؟

ووقِعْت الوَاقِعَةُ. وَكَانَ حُكْمُ القَاضِي عَلَى آمَالِي قَاضِي وَجَمَعَتْ مَالِي فِي الدَّارِ
وقررت الرحيل ، من سوء الأعمال ، الفرار

قَالَتْ زَوْجَتي هَيَّا نَشُدّ الرِّحَّالَ

فَتِلْكَ الأَرْض هِيَ عَلَى عَزِيزَة

وَلَكِنَّ لِلبَقَاءِ عِنْدَ البَشَر غَرِيزَة

وَكَرِهْتُ عَجْزِي مَا يَصْنَعُونَ

جَمَّعَت كُلٌّ مَا املَكَ مَنْ مَالِ

وَهُوَ لَا يَكْفِي إلَا نَاقِه وَاحِدَة

وَتِلْكَ بِدَايَةٌ غَيْر وَاعِدَة

فَذَهَبْتُ إِلَى شَيْخِ القَوَافِلِ

وَسَأَلْتُهُ العَمَلَ وَقَصَصْتُ قِصَّتَي

فَأَنْتَظِر حَتَّى اِنْتَهَتْ حِكَايَتُي

وَقَالَ بَعْد أَيَّامٍ سَنَشُدُّ الرِّحَال

فَأَحْضَر أَهْلُكَ هُنَا وَشدُّ لِهُمْ الخِيَامَ وَاُحْرُسْ البَضَائِعَ وَالأَنْعَامَ

وَاِصْطَحَبَت زَوْجَتي وَتَوَكَّلْنَا عَلَى مَنْ بِيَدِهِ صَلَاحَ الحَالِ
وَدَعَوْتُ رُبَى أُقم الحَالَ بَعْدَ أَنْ مَالِ

وَكَانَتْ زَوْجَتِي تُوشِكُ عَلَى الإِنْجَابِ. فَدَعَوْتُ أَنْ يَرْزُقَنَا
بِأَرْضٍ صَالِحَةٌ وَيُبْعِدُ عَنَّا سُوء العَاقِبَةُ وَالسُّؤَال

وَكُنْت ذَات قُوَّةٍ وَبَسْطُة فِي الطُّولِ بَيْنَ الرِّجَالِ

فَلَمْ أُتْعِبْ بِرَغْمٍ سنِّيٍّ وَكَانَتْ لَا تُرْهِقِي الأَحْمَالَ

وَأَصْبَحْتُ لِسَيِّدِ القَوَافِلِ قَرِيبِا

وَأَتَانَى ذَات يَوْم وَقَالَ. هَلْ مِنْ أَرْضٍ لَكَ فِيهَا صاحب أو قرِيب؟

قُلْتُ بَعْدَ أَرْضِي لَا فَرْقَ فَقَدْ أَصْبَحْت غَرِيبا

قَال لِي مَكَان لَا اِسْمَ لَهُ وَلَا عُنْوَانَ

اِذَا أَرَدْتِ أن يكون لَكَ دُونَ البَشَرِ مَكَان

وَعِدَّتُ إِلَى زَوْجَتِي وَرُحْتُ أَقُصُّ عَلَيْهَا مَا كَانَ

قَالَتْ رَضِيَت بِمَا تَرُضى بِهِ. فَلَا حَيَاة إلَا مَعَكَ فَقَدْ طفح الكيل وثَقَّلَ المِيزَان

وَقَدْ كَانَ

اِتَّفَقْنَا وَبَعْد وَقْتٍ لَا أَعْرِفُ أطويلا كَانَ أَمْ قَصيرا

أَتَانى وَقَالَ أُعِدُّ راحلتك سَنخْرِجُ عندَ انتصاف اللَّيْل وَتَحَرَّكَتْ القَوَافِلُ وبقينا وَقَالَ لَهُمْ إنَّ زَوْجَتَي جاءها المَخَاض وأنه شىء يأتى فجأه وبلا معاد

وَأَنْطَلِقت القَافِلَةُ وانتظرنا وَقَدْ اِكْتَمَلَ القَمَر

وَتَحَرَّكْنَا بِالنُّوقِ وَالخَيْلِ. وَرُحْنَا نقَطِّعُ البيداء

جَاءَ الصَّبَاحُ وَيتْبَعُهُ المَسَاءُ

وَدَخَلْنَا الدَّرْبَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا إنْسَان

وصلنا هاهنا وكَانَتْ جِنة لِنَّا فِي الأَرْضِ بَعْدَ مَا كَانَ

وَأَصْبَحَ يَأْتِينَا ثَلَاث مَرَّاتٍ بِالعَامِ

وَكُلّ مَرِّهِ يَبْقَى إمَّا شَهْرا أَوْ أَيَّاما

وَقَدْ زَادَ عَدَد السُّكَّانِ حَتَّى أَصْبَحْنَا اثْنتين وَعِشْرِينَ أُسْرَة مِمَنْ فَرُوا مِنْ غَدْرِ الإِنْسَان؟

وها نْحنِ نَعِيشُ كَمَا يَنْبَغِي بِلَا ضَغَائِنَ أو آلام

رَاضَينَ بِمَا تَيَسَّرَ لِنَّا مَنْ خَيْر الأَرْض وَبَعدَنَّا عَنْ شَرِّ الأنام وَقَدْ صَنَعْنَا حياة وَتَعَلَّمْنَا وَعَلِمْنَا آبَاؤنَا هُنَا أنقى أيام

تَسَاءلَتْ أَمْ الغِلْمَان وَمَا قِصَّةُ الوَاحَةِ وَكَيْفَ أَكْتَشفُهَا؟!

قَالَ تِلْكَ قَصَّة سَيَقُصّهَا عَلَيْكُمْ الشَّيْخُ سَعْدُون

وَرَاحِتْ تَتَابُعَ الأَيَّام كَأنهَا رَبِيعُ مُحَمِّلٌ بالأنسام قَدْ اِنْتَقَلْنَا إلي أَرْض السَّكِينَةِ وَالسَّلَام

وَرَاح حَاتِمُ يَتَحَرَّك وَيَعْمَل وَلَا يَتَكَلَّم أَوْ يَتَفَاعَل مَعَنَّا

حَتَّى مَرِّ ثَلَاثة أَسَابِيعَ وَقَدْ كَانَ بِهَا أَرْوَع نَخِيلٍ

وَكَانَ يُعَانِقُ السَّمَاءَ بِشَكْلٍ جَمِيلٍ

وَكَأَنَ أَمِير يَخْرُجُ سَرِيعًا مِنْ طَوْرِ الصبا لِطَوْرِ الشَّبَابِ

فَقَدْ أَتَمَّ أَرْبَعة عَشْرَة عَاما

وَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ تَسَلُّق النَّخِيلِ وَفِي ذَلِكَ اليَوْمِ حَدَثُ أَمَرّ جَلِل

إِذَن بَعْدَ أَنْ صَعِدَ إِلَى قُمْتهَا وَرَاح يجَمِّعُ رُطَبهَا

وَيَفْخَرُ لِمَا جَنَاهُ مَنْ أَكَلَهَا

كَادَ أَنْ يَسْقُطَ وَقَدْ كَانُوا يَضَعُونَ حَوْلَ وَسَطِهِ حِزَاما

وَتجَمِّع الخَلْق وَزَادَ الهَرْج

تحَرِّكُ حَاتِمُ يصَرِّخُ بِاسْمِ أَمِير كَانَ فِي مُصِيبَتِنَا الفَرَجِ وَتسَابِق الرِّجَال وَصَعدَ أَحَدُهُمْ وَأَنْزَلَهُ

فَضَمَّتُ حَاتِمَ إِلَيْه وَاِسْتَكانْ أَمِيرُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ

وَأَوَّلُ الغيث قَطَرة وَيَنْهَمِرُ

وَاِنْتَظَرْت حَتَّى المَسَاء وَقَدْ انْتَهِي القَوْم مِنْ العَشَاءِ

اِنْتَقَلَتْ تجَالِسُ زَوْجهَا. وَتسَامِرُ نِصْفَهَا

قَالَتْ يَا زَوْجِي إِنْ أَجَبْت فَقَدْ فَرَجْت عَنْ قَلْبَيْ اِلَهِم

وَأَنَّ صِمَّتَ فَاعْلَم أَنَّ الأَحْزَانَ كَمَا الأَفْرَاح تَتَشَارَك

فَتَخْرُج إِلَى العَلَنِ وَعَلَى صَخْرَةِ الصّحْبَةِ تَتَهَالَك

فَشَارِكْنِي ذَاتَكَ تَنَعّمٍ بِالسَّلَامِ وَتصَفِّي حَيَاتَكِ

مَدُّ يَدِه

اِحْتَضَنَّ يَدَهَا وَلَمْ يجب

كَأنه غريق يَبْحَثُ عَنْ بِرٍّ

أَوْ مَرِيض يَحْتَاجُ طَبِيب

فابتسمت وَأَنْفَاسُهُ العَطِرَةُ تَنَسَّمَتْ.

وَرَفَّعَتْ رَأْسَهَا لِلسَّمَاءِ وَقَدْ اِقْبَل الصَّبِيَّةَ يَتَضَاحَكُونَ

وَرَاح كُلّ مِنْهُمْ يُقَبِّلُ يَدَ أَبِيهِ ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَرَحِهِمْ يلْهُون وَرَاقَبَهُمْ وَهُمْ يَكْبُرُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ رَمْيَ السِّهَامِ وَاللَّعِبَ بالحسام.

بَدَأَ حَاتِمُ يَعُود لِلحَيَاةِ فَسُبْحَانَهُ يُحَيِّ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم

وَقَدْ جَلَسَا يَتَحَدَّثَانِ

قَالَتْ يَا زَوْجِي هَلْ أَصَابَكَ الجَنَان

قَالَ حِينَ اِشْتَدَّ عَلَى الظُّلْمِ أَصَابَنِي هذيان

فَلَمْ أَعْرِف أأسير لِلخَلْفِ أَمْ لِلأَمَامِ

أَعِي مَا تَقُول. وَلَكِنَّ حِينَ يَشْتَدّ المَوْجُ يَنْحَصِر

وَعَلَى شاطىء الوَاقِعُ يَنْكَسِر

وَمَرَّتْ الأَيَّامُ بِسَلَام

وَذَات مَسَاء وَهُمْ يَتَسَامَرُونَ

قَالَ شَيْخُهُمْ

اِعْلَمُوا أَنْ غَدًا أوبعد غَد يَأْتِينَا الشَّيْخُ سَعْدُون

اِسْتَيْقَظُوا يَوْمًا عَلَى جَلْبِهِ

وَكَانَ الشَّيْخُ سَعْدُونَ

اِسْتَقْبَلُوهُ وَاِسْتَقْبَلَهُمْ

وَسَأَلَ عَنْ حَاتِمَ فَأُتَاهُ بِاسْمِ

فاحتضنه وَقَال مَرَحَبا بُنِّي قَدْ بَرَّأْتَ مِنْ الجُنُونِ

وَاللهِ يَا شَيْخُنَا الظُّلْم وَالغَدْرُ أَشَدُّ وَطِأة عَلَى نَفْسِ الإِنْسَانِ وَمرْ النَّهَار مَا بَيْنَ مَرَحَ وَسمْر

وَاِجْتَمَعُوا يَأْكُلُونَ وَتَجَمَّعُوا لِجَلَسَاتِ السَّهَرِ

اِتَّجَهْت لِزَوْجِهَا تستئذنه أَنْ تَسْأَلَ الشَّيْخ عَنْ حَالِ البِلَادِ

وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الأَرْبَعِ وَمَا فعلُهِ الظُّلْم بِالعُبَّادِ

قَالَ الشَّيْخُ سَعْدُونَ وَحَدُّوا الديان

كَمَا تَعْلَمُونَ أُسَافِرُ مَعَ قَافِلَةٌ وَأَتْرُكُ أُخْرَى

وَتِلْكَ المَرَّة كُنْتِ قَدْ قَرَّرْتِ البَقَاءَ

وَرُحْت أَتَحَرَّى الأَمْر وَ أَسَال فِي الخَفَاءِ

مَرَّ يَوْمَانِ وَسَمِعْتُ النَّاسَ يَتَهَامَسُونَ

وَعَنْ القَاضِي بشماته يَحْكُونَ. فَقَلَّتْ لَمَّا مِنْ قَاضِيكُمْ تسَخِّرُونَ

قَالُوا أَنَّ القَاضِيَ قَدْ اِشْتَرَى بِيت حَاتِم بِطَرِيقَة الاِحْتِيَالِ

وَأَنَّ أَمْ الغِلْمَان أَخَذْت مِنْهُ مَالِ

وَسَافَرْت وَتَرَكتهُ فِي حَالَة خَبَالٍ

إِذَا خدعَتَهُ اِمْرَأَة

وَالأَهَمُّ أَنَّ أَمْ الغِلْمَان قَدْ وَهَبْت البَيْت لِلسُّلْطَانِ لِيُحَوِّلَهُ بيمارستان

وَحِينَ اشتكى لَهُ القَاضِي

كَانَ حُكْمُ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ قَاضِيا

وَهُوَ يَبْحَثُ عَنْهَا الآنَ

وَقَدْ وَصَلَ إِلَى جَارِهُمْ، حَسَّان

وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَافَرُوا وَلَكِنَّ لَا يَعْرِفُ المَكَانَ

وَضَغَطَ عَلَيْهِ وَهَدَّدَهُ فَقَالَ أَنَّكُمْ سَافَرْتُمْ إِلَى أَرْضِ كنعان وَسَأَلْتَهِمُ مَاذَا أَيْضًا

قَالُوا صَبْرا هُنَاكَ مَا هُوَ أَعْجَبَ

وراحوا على كَبِير التُّجَّارِ يَتَنَدَّرُونَ

هَذَا آخَر عِشْقِهِ لِلنِّسَاءِ وَالمُجُونِ

وَتَعَجَّبْت وَمَا قِصَّةُ كَبِيرِ التُّجَّارِ

كَمَا خدْعَت القَاضِيَ خدعَتهُ

وَبِالبَيْتِ الكَبِير عَشَّمْتُهُ

فَأَعْطِاهَا المَالَ وَقَدْ ظَنَّ أَنَّهَا سهلَتْ المَنَال

وهاهو ذا يَجْنِي حَصَادَ زَرْعِهِ

أَمَّا أَخوهِ فَقَدْ بَاعَتْهُ البَيْتَ وَأَخَذَتْ المَالَ وَبِصَكِّ دَيْنِ خدْعَتِهِ والمرابي صَنَعْت بِهِ مَا صَنَعْت بِأَخِيهِ

فَأَعْطَتْهُ صَكَّ دِيْن وَاِشْتَكَوْا لِلسُّلْطَانِ

فَقَالَ عَلَى نَدَمِ تَعَوُّد فَلِتَقْتَصُّوا مِنْهَا وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا بَيَان

أَمَّا البَيْتُ فَقَدْ صَارَ بيمارستان

وَقَدْ رَصَدَ القَاضِي وَكَبِير التُّجَّار

عَلَى رَأْسكَ أَلْف دِينَارٍ

أَمَّا أَخوكَ والمرابي يَجْلِسُونَ وَيَنْتَظِرُونَ

فَأَنْتَ تَعْرِف أَرْوَاحَهُمْ تَخَرُّجٍ وَأَمْوَالهمْ لَا يُنْفِقُونَ

وَ رَاح النَّاسَ يَحْكُونَ وَبِقِصَّتِكَ يَتَغَنَّوْنَ

اِبْتَسَمَ حَاتِمُ وَقَالَ أَنْتَ يَا زَوْجَتِي عَقل مُتَفَرِّدٌ وَ قَلَّب بالمحبة مَسَّكُون

قَالَتْ يَا زَوْجِي أَنَّ مَسَّكُمْ سُوء لِاتَغفّلَ مِنِّي العُيُون

اِلْتَفَتَتْ أَمْ الغِلْمَان وَقَالَتْ يَا شَيْخِنَا مَا قِصَّةُ وَاحَتِكَ هَلَا أَخْبَرَتْنَا.

قَالَ تَعْرِفُونَ أَنَّ الحَيَاةَ لَا يَأْمَنَّ جَانِبَهَا إِلَا غَافِل مَأفُوُن

وَأَنَّ النَّتَائِجَ نِتَاجٌ عَنْ أَفْعَالِنَا الَّتِي نَحْنُ لَهَا صَانِعُونَ

وَأَنْ لَمَّنَا الزَّمَان فَأَنَّنَا نَكُون كالنعام نَدْفِنُ رؤسنا فِي الرِّمَالِ ننسى وَنَشْتَكِي سُوء الدَّهْرُ وَتَرَدِّي الأَحْوَالِ

وَهَكَذَا كُنْتُ فَقَدْ كُنْت ابِنَا لتاجر كَبِير

وَقَدْ عَلِّمْنِي وَأَدَّبْنِي فَعَشِقَتْ التَّرْحَالَ وَرَاحَتْ نَفْسِي تَهْفُو لِلتَّغَيُّرِ

وَمَرَّت أَيَّامٌ وَشُهُورٌ وَسَنَوَاتٌ وَوَالِدِي يَرْفُضُ أَنْ يسَافِرَ مَعَ الرِّجَالِ

وَرُحْتُ أَرْجُوهُ فَقَالَ أَنْتَ وَحَيِّدِي وَاِخْشَيْ عَلَيْكَ مِنْ التَّرْحَالِ
فَالوَضْعُ متردي وَمِيزَانُ العَدْلِ قد مَالِ

وَقَدْ قَلَت الأَرْزَاق وَكَثَّرَ نَهْبَ القَوَافِلِ

يَا أَبِي قَدْ عَلَّمْتَنِي فَأَصْبَحْتَ بَارِعا فِي النُّزَّالِ وَأَفْضَلَ خَيَال

وَبَعْدَ طُولِ الرَّجَاءِ وَافقٍ فَشَدَدْتُ الرُّحَّالَ

وَرُحْت وَأُرَكِّبُ البَحَّارَ وَأَطُوفُ مَعَ القَوَافِلِ البِلَاد

وَأُدَرِّسُ طَبَائِعَ البَشَرِ وَأُرَاقِبُ أَحْوَالَ العُبَّادِ

وَبَعْدَ عَوْدَتِي مِنْ أَحَدِ الرِّحْلَاتِ قَالَ وَالِدِي يَابَنِي العُمْرُ قَصِّير
وَكُلِّ مَا أَرْجُوهُ أنْ تَتَزَوَّج وَأَرَى أَحْفَادِي قَبْلَ أَنْ أُسَافِرَ السَّفَرَ الأَخِير

قُلْتُ يَا أبِي اِخْتَرْ لِي مَنْ النِّسَاء مَا تَشَاء

زَوِّجْنِي بِزَوْجِهِ خلاوقه حَسْنَاء

ذَات مَالٍ وَعَقْلٍ رَاجِح وَبِهَاء

وَقَدْ أَنْجَبَتْ لِي صَبِّيا وَفَتَاة

وَقَدْ حَمِدَت الله عَلَى مَا أَعْطَاه

وَقَالَتْ لِي زَوْجَتي كَفَاك تَرْحَال

فَقَدْ رَأَيْتُ حُلْمَ شُغْلٍ مِنِّي البَال

فَاِسْتَهَنْتُ بِمَا قَالَتْ وَقَدْ تَجَاهَلَت حَدْسُهَا

وَبِرَغْمِ حُبِّي لَهَا لَمْ أَسْتَجِبْ لِرَجَائِهَا

فَقَدْ أَصْبَحَ السَّفَرُ فِي دَمِي

وَجمَع المَخْطُوطَات وَالكُتُب الغَرِيبَةَ كُل هَمِّي

وَتِلْكَ الرِّحْلَةُ كَانَتْ لَهَا مَا أَهدُّ وَعَلَامَات

فَقَدْ نَعَقَ عَلِي رَؤُسَنَا ذَاكَ الأُسُود المَشْئُوم

وَرَاح يَصْحَبُنَا عَلَى الطَّرِيقِ وَتَرْكُنَا فَحَلَّ مَحَلَّهُ طَائِر أَلْبُومٍ فارتجف الرِّجَالُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ فلنعود

قُلْتُ مَالُكُمْ إِنْ المُقَدِّر مَخْطُوطٌ وَمَوْعُودٌ

وَبَعْدَ رَحِيلِ شَهْرٍ هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةً هَوْجَاءَ

فَاتَخِذْنَا مِنْ أَحَدِ الهِضَابِ سَاتِرَا قَدْ تَرَابطِنَا بِالحِبَالِ حَتَّى لَا تَحْمِلُنَا إِلَى عُمْقِ الصَّحْرَاءِ

وَلَمْ تَهْدَأْ إِلَا بَعْد انتصاف اللَّيْل فَجَلَسْنَا نَسْتَرِيحُ حَتَّى انبلج الصَّبَاح

وَكَانَ مَعَهُ أَسْوَأَ خَبَرٍ إِذِ عَلَى البُعْدِ طَيْفٌ لَاحَ

إنهم قطاع الطريق

وَكَانَ بَيْنَنَا نُزَّالٌ وَتَسَاقَطَ مِنَى الرُّجَّال وَدِمَاءهِمْ عَلَى الرِّمَالِ تَرَاقٍ

وَأَصَبْتُ بِطَعْنِة فَسَقَطٌ فِي بِحَارِ الظُّلْمَةِ غريق

سَبُّوا الأَطْفَال النِّسَاءَ وَلَمْ يَتْرُكُونَا إلا وَأَصْبَحْنَا أَشْلَاءَ وَاحَسَرَتَاه بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَحْرَارا أَصَبَّحُوا أَرِقَّاء

وَلَا أَعْرِفُ كَمْ مَر عَلَي حَتَّى قَرَصَنِي بَرَدُ الصَّحْرَاءِ

وَاِسْتَفَقْتُ وَكَأن يَدٌ تَدْفَعنِي أَوْ هَاتِفًا يَرْفَعُ صَوْتُهُ بِالنِّدَاءِ وَنَظَرْتُ لَمْ أَجِدْ أَلَا أَجْسَادُ قَدْ أَلْتَهِمُهَا المَوْتُ.

عَلَى وَحْدَتِي لَا عَلَى ضَيَاعِ تِجَارَتِي بَكَيْت

وَقَدْ عسعس اللَّيْلُ فَغُصْتُ فِي بُحُورِهِ وَقَدْ تَرَاقَصْت أَمَامَي الخيالات

وَرَفَعْتُ بَدَنِي الضَّعِيفَ وَقَدْ حَاصَرْتَنِي المَخَاوِف وَالأَوْهَام فَاسْتَعَذْتُ بِاللهِ رُحْتُ أَتَحَسَّسُ عَلَى أَجَد شَيئا يخَفِّفُ الأَلَم فَوَجَدْتُ قُرْبَهُ بِهَا مَاءٍ فَغَسَلْتُ جُرْحِي وَرُحْت.

أَدْعُو ربَّ الأنام

وَالْتَفَّتْ ذَات اليَمِينِ وَذَات اليَسَار

وَفَجَّأة أَبْصَرْتُ نُورَ مَرْسُوم عَلَى الرِّمَالِ بِاقْتِدَارٍ

كَأَنَّهُ رُمْحٌ هَائِلٌ جَبَّارٌ

يُشِيرُ إِلَى الجِبَالِ وَلَا يُحَيِّد

فَتَبَعَته مَسْلُوبٌ الإرادة وقَدْ أَمْسَيْتُ فِي الكُون وَحِيدا

وَشَعَرْتُ كأن يَدٌ مَسَّحَتْ عَلَى جُرْحِي وَأَمْسَكَتْنِي فَكَانَتْ لِي معَين

وَ نَظَرْتُ لِلسَّمَاءِ وَكَانَ القَمَرُ يَتَوَسَّطُهَا وَنَجَّم الشِّعْري يُجَاوِرهُ مِنْ اليَمِينِ

سُبْحَانَهُ مِنْ جَعْلِ النُّجُومِ دَلِيلا فِي اللَّيْلِ للتائهين

فَحَسَبْتُ النَّجْمَ وَقَرَّرْتُ أَنْ أَتْبع السَّهْمَ لِحِينٍ

وَظَهْر أَمَامِي دَرْبٍ مِنْ العَدَمِ

وَأُصْبِحْ لِلَعِينٍ وَاضِحا كَأَنَّهُ رَسْمٌ بِقَلَمٍ

وَبَيْنَ الجَبَلَيْنِ خَطٌّ يَلْتَوِي صُعُودًا وَهُبُوطا

وَلَا أَعْرِفُ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا بِرَغْمِ جُرْحِي الغَائِرِ كَيْفَ تَمَكَّنْتُ مِنْ المَسِيرِ

وَالغَرِيبُ أَنَّ الدَّرْب لَمْ يَكُنْ عَسِير

وَرُحْت أُسَيِّرُ تارة وَأَسْتَرِيحُ أُخْرَى

حَتَّى تَنَفُّسِ الصُّبْح فَتَنَفَّسْتُ مَعَهُ الصُّعَدَاءَ

وَعَلَى مَرْمَى البَصَرِ كَانَتْ وَاحَةُ غِنَاءٍ

فَتَحَيَّرْت هَلْ هُنَاكَ سَرَاب أَخْضَر

فَلَمْ يَنْتَصِفْ النَّهَار وَهَلْ يُزْهِرُ الرَّمْلُ الأَصْفَرُ؟

وَتَهَالَكْت وَلَكِنَّ نَفْسِي تَمَلَّكْتُ

وَكَأَنَ ماءها يُشِع نُور كَأَنَّهُ الدُّر المَنْثُور

وَصِلْت وَارْتُمِيَتْ فِي أَحْضَانِهِ

فارتويت ثُمَّ غَفَوْتُ حَتَّى المَسَاءِ

وَاِسْتَفَقْتُ عَلَى يَدٍ نَاعِمَةٌ تَلْمسُ وَجْهِي وَتُمَسِّدُ جُرْحِي وَانْتَفِض هَلْ هُنَاكَ كَائِنٌ بِهَذَا المَكَان

وَتَلَفَّتَّ أَلَّا يُوجِدَ هُنَا صُحْبَةً وَسُكَّان

وَلَمْ أَجِدْ إِلَا طُيُورا غريدة

وَبَهَائِما وَحِيدَةُ شَرِيدِة

وَسَمِعْتُ صَوْتا يَقُولُ مَنْ أَنْتَ يَا إِنْسَان

وَمَاذَا أَتَى بِكَ لِتِلْكَ الوَاحَةِ ذَات الأفنان

فانتفضت وَاِسْتَعَذْتُ مِنْ الشَّيْطَانِ

وَقُلْتُ مَنْ أَنْتَ ياهذا وَطَلَبَت الأُمَّانِ بِحَقِّ الرَّحْمَنِ

قَالَ الصَّوْتُ كَيْفَ اِلِي هُنَا وَصْلَت

وَعَلَى طَرِيقِ وَاحَتِنَا حَصَلْت

فَهُوَ مَرْصُودٌ مِنْ أَعْوَامٍ وَأَعْوَامٍ

لَا يَظْهَرُ إِلَا لِقَلِيلٍ مِنْ الأنام

وَلَيْسَ لِلبَشَرِ عَلَيْهَا سُلْطَان

قُلْتُ لَقَدْ أَرْشَدَنِي اللهُ ياعمار المَكَان

وَصَمْت الصَّوْتَ بَعْضَ الوَقْتِ وَقَال نعم نَعْرِفُ ياسعدون الآنَ

وَنَعْرِفُ أَيْضًا مَا أَصَابَكَ وَمَا كَانَ

فَاِسْتَكِنْ وَلَا تَخافُّ فَقَدْ أَحْسَنْتَ الكَلَامَ وَالبَيَان

وَلَكَ عَلَيِّنَا أنْ تَعُود إِلَى بَلَدِكَ بِسَلَامٍ

وَلَكِنَّ إِذَا اِسْتَطَعْت أَنْ تحْيَا هُنَا شَهْرا بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ
فَاِنْتَفَضْت خَائِفا وَسَأَلْتُ العَيْشَ هُنَا بِلَا سَبَبِ هَذَا مُحَال

قَالَ الصَّوْتُ لاحديث بَيْنَنَّا وَهَذَا أَمْرٌ وَلَا يَحْتَاجُ جِدَال
فَرَجَوْتُهُمْ بِصَوْتٍ مَهْزُومٍ

أَلَا تدَلُّونِي عَلَى الدَّرْبِ فَلَا سَبَبَ أنْ أَظَلَّ هُنَا شَهْرا؟

لَا قَالَهَا الصَّوْت بِحَزْمٍ سَتَبْقَى حَتَّى تُبَرَّأُ الجِرَاح وَهَذَا آخَر
قَرَارٍ. فَأَجْلَسَ وَتَنَعَّمَ بِنَّسِيمِ المَسَاءِ وَنُورِ الصَّبَاحِ

وَاِتَّخَذَهَا لَكَ مَقَام وَإِنْ تخطِّيَتْ الشَّهْرَ فَكُلُّ مَا تَطَلَّبَهُ مجاب
بِلَا كَلَامٍ

وَ تَمْلكنِي الخَوْفُ وَعَصَفَتْ بِي الأَوْهَام

رَجاءً خَبِّرْنِي مَاذَا هُنَاكَ فَكَلَّامَكَ قَدْ أَرْهَقَ مِنَى التَّفْكِيرَ

وَلَكِنَّ لَا مُجِيبٌ وَقَدْ كَانَ الظَّاهِر لِلَعِينٍ هُوَ النَّذْرُ اليسير
كُهُوفا كَبِيرَةً أَرْضِهَا وَثِيرَةً

وَنَبِعْ مَاءٍ كَأَنَّهُ سَلْسَبيل وَطُيُور بِكُلِّ الأَلْوَانِ

وَعُرُوق تَخْتَرِقُ الجَبَلَ زَبَرْجَدٌ وَياقوتٌ بِحُمْرَتِهِ كَأَنَّهُ المَرْجَان
فَأَقْسَمْتُ أَلَّا أَمْسِ مِنْهَا شِيئا إِلَا بَعْدَ اِسْتِئْذَانٍ

فَالحَيَاةُ عَطِيَّةُ لِمَنْ اِلْتَقَى بِالمَوْتِ

حَتَّى كَانَ مَا كَانَ وَعِشْتُ هُنَا أُقْسِي وَأَرْوَع المُغَامَرَاتِ
وَسَأَكْمُلُ لِكُمْ فِي حَدِيثٍ آتٍ

وَمرْ الشَّهْر بحُلُّوهُ وَمرُّهِ

وَحِينَ أزف المِيعَادُ قَالَ الصَّوْتُ طننتك مَعَ الأَمْوَاتِ

فَالتَفُتْت وَاِسْتَعَذْتُ وَأَلْقَيْتُ التَّحِيَّةَ

قَالَ الصَّوْتُ كَيْفَ اِسْتَطَعْتَ البَقَاءَ وَلَمْ تَفَارَقَ عَالِم الأَحْيَاءِ
قُلْتُ أَنَا أَشَاءُ. وأَنْتِ تَشَاءُ وَاللّه يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

قَالَ أَصَبْتُ أَطْلُب تُجَاب. قُلْت لِي طَلَب وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مجاب

مَا هُوَ

قِلَّتُ هُنَاكَ مَنْ اِسْتَنْزَفَ أَرْوَاحَهمْ العَذَابِ

وَقَدْ رَأَيْتُ الكَثِيرَ وَأَنَا أَلْفُ البِلَادِ وَأرَى أَحْوَال العُبَّادِ

فَلِمَاذَا لَا نَجْعَلُهَا مَقَرا وَمُسْتَقَرًّا

يَحْتَضِنَّهُمْ مِنْ ظُلْمِ البَشَرِ

قَالَ الصَّوْتُ مِنْ يَضْمَنُ ألا يُحَوِّلُوهَا إِلَيَّ سقْر

فَأَجَبْتُهُمْ مِنْ تَعَرُّضٍ لِلظُّلْمِ لَا يَظْلِمُ وَلَا يَغْدِرُ مِنْ بِهِ غَدْر اِسْتَفْهَمَ مِنَى وَقَالَ اُجْبنِي ياسعدون

هَلْ تَضْمَنُ نُفُوس الخَلَائِقِ؟

وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ وَمخْفِيَةً كَمَا خَلْقُهَا الخَالِقُ

قُلْتُ لَا أَمْلِكُ أَيَّ ضَمَانٍ فَمَا أَنَا إِلَّا إِنْسَانٍ لَكِنْ اللّه مُسْتَعَان. قَالُوا إِذَن إعطنا عهدك الآنَ

قُلْتُ قَبْلَه لِي عِنْدَكُمْ طَلَبَانِ

الأَوَّلُ

أَنَّ تَخَفِّي عُرُوقِ الجَوَاهِرِ فَلَا يَرَاهَا إِنْسَانَ

وَإِنْ تُغَلِّقُ مَدَاخِل الأَرْضَ الآخرة فَلَا يَعْرِفُهَا كَائِنٌ مِنْ كَانَ وَالثَّانِي

أَنْ يَظَلُّ الطَّرِيق مَخْفِيٌّ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ إِلَا إِذَا أَرْشَدْتُهُ

وَبَعْدَ صَمْتٍ طَالَ وَظَنَنْتُهُمْ سَيَرْفُضُونَ

قَالَ الصَّوْتُ طَلَبكَ مجاب

هَلُمَّ فَقَدْ اِنْتَصَفَ اللَّيْلُ وَ جب عَلَيْكَ الذَّهَاب

وَتَحَرَّكْت مُسْرِعًا وَقَدْ تَشَوَّقْتُ لِلِقَاءِ أَهْلِي وَالإِيَابِ

وَتَوَقَّفْت قَائِلَ الطَّرِيقَ إِلَى الوَاحَةِ أَخَذَ مِنِّي شَهْرا وَعَشْرَة أَيَّامٍ. فَكَيْفَ أَعُودُ إِلَى بِلَادِي وَحِيد بِلَا ركائب وَبِسَلَامٍ

قَالَ عِنْدَ الخُرُوجِ سَتَجِدُ نَاقَةٌ فَرَكِبَهَا

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا نَزَلْت عَنْهَا فَلَنْ تَجِدْهَا وَلَنْ تَسْتَطِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ رُكُوبَهَا

وَهِيَ سَتَقْطَعُ الطَّرِيقَ فِي أَيَّامٍ وَإِيَّاكَ إِنْ تَتْرُكُ رَسَنَهَا

وَإِذَا اِضْطَرَرْتُ لِلنُّزُولِ فَشَدهَا إِلَيْكَ بِحَبْلٍ شَدِيدٍ

وَلَا تُغْمِضُ عَيْنَكَ عَنْهَا لِحَظَّة وَلَا تُكِنَّ عَنْهَا بَعِيد

وَلِخَوْفِي رَبَطَ نَفْسِي بِهَا وَقَدْ كَانَتْ الجِبَالُ تَمْرٌ مِنْ أَمَامِي مُرُورِ السَّحَابِ

وَأَصَابَنِي العَجَبُ وتمنبت أَلَا يَكُونُ أَضْغَاث أَحْلَامٍ أَوْ سَرَابٌ فَرِحْتُ أُرَاقِبُ الطَّرِيق وَقَدْ مُرٌّ أَرْبَعَة لَيَالِي وَخَمْسٌ صباحات وَقَرَّرْتُ التَّوَقُّفَ وَالرَّاحَةَ فَقَدْ كَانَ زادي مَاء وَبِضْعُ لُقَيْمَاتٍ فَأَصَابَنِي الإِرْهَاقُ فأنختها وَلِسَاعِدَيْ رَبْطُهَا

وَجَلَسَتْ فَأَكَلَتْ مَا طَابَ لِي وَغَفَتْ عَيْنَي

وَمَا شَعَرْتُ إِلَا وَقَدْ فَكَّتْ رَسَنَهَا وَفَرَّتْ منَى

وَالمُقَدِّرُ لامهرب مِنْهُ وَحَسَبْتُ الطَّرِيقُ فَكَانَ أَمَامَي أُسْبُوعا أَوْ يُزَيِّدُ

وَكَانَ مَعَي مَاء قَلِيلٍ وَكسرَاتٌ خُبْزَ ولامزيد

فَقَرَّرْتُ أَنْ أَسِيرَ لَيْل وَأَسْتَرِيح بِالنَّهَارِ

حَتَّى لَا تُرْهِقُنِي الشَّمْسُ أَوْ أَلنهَارٌ

وَلَمْ يَمُرَّ يَوْمَانِ حَتَّى صَادَفْتَنِي قَافِلَةٌ

وَكَانَتْ إِلَى بِلَادِي قَافِلَةٌ

وَعِدَّتُ مَعَهَا وَقَدْ كُنْتُ سَعِيدا

وَلَمْ تَكْتَمِلُ فَرْحَتِي فَقَدْ مَات وَالِدِي حُزْنَا عَلَيَّ فِقْدَان اِبْنِهِ الوَحِيدِ

وَأُصِيبَتْ اِبْنَتي بَدَأَ غَرِيبا إِذَا أَصَابَهَا الهُزَالٌ

حَتَّى نَحْلًا عَوِّدْهَا وَأَصْبَحَتْ ذَات الإِثْنِيَّ عَشْر رَبِيعًا كَأَنِهَا خَيَال

وَقَالَ الأَطِبَّاءُ إِنَّ شِفَاءهَا مَحَالَ. فَقَرَّرْتُ أَنْ أَحْمِلهَا للواحة وَلَمْ تَتَكَلَّمْ زَوْجَتُي أو تسأل إِلَى أَيْنَ الذَّهَابَ

مَاتَتْ الصَّغِيرُة بَعْدَ أَيَّام وَمَا عَدَّتْ مِنْ الذَّهَابِ إِلَا بالإياب حَامِلًا طِفْلَتَي يَسْكُنُنِي الأَلَمُ وَالعَذَابُ

وَقَبْلَ أَنْ يُمِرَّ شَهْر لَحِقَتْهَا أُمُّهَا وَهَذَا كَانَ فَصَّلَ الخَطَّابَ وَأَصْبَحْتُ فِي أَرْضٍ أَحَزَّانِي مَسْجُونٌ

وَقَدْ اِعْتَزَلْتُ البَشَرَ وَأَصْبَحْتُ حَائِرا مَا بَيْنَ الكَافِ والنون وَكَانَ اِبْنِي مَعِي وَقَدْ تَحْمِل مِنِّي الصدود وَالصَّمْت وَالسُّكُون

وَبَعْد فَتْرَةٍ قَالَ يَا أَبِي عَلَّمْتَنِي أَنَّ الأَعْمَالَ لَا نَمْلِكُهَا وَنَحْنُ مُسَيَّرُونَ لَا مُخَيَّرٌ نَ

فَلِتُسَافِرَ وَلِتَجُوبَ المَعْمُورَةَ

فَلِلسَفَرِ فوائد وَمِنَها جبرالقلوب المَكْسُورَةُ

وَسَاعِدْنِي أَنْ أَعُودَ لِلتَّرْحَالِ

وَكَانَ مَعِي وَرُحْنَا نَجوبُ البِلَادَ وَالسُّهُولَ وَالجِبَالَ

وَقَدْ قَصَصْتُ عَلَيْهِ قَصَّة أَلْوَاحَة

وَذَهَبْنَا إِلَيْهَا واعتزلنا فِيهَا فَتَرَة لِلاِسْتِشْفَاءِ وَالرَّاحَةِ

وَمِنْ يَوْمِهَا أَصْبَحْتُ سُوَّاحَا فِي بِلَادِ اللهِ

أَجْمَعُ الكُتُب وأراقب تَصَارِيف الحَيَاةِ

وَصَمْت الشَّيْخ سَعْدُونُ وَقَدْ رَاح الشَّبَابَ وَالشَّيْبَ يَلْتَفِتُونَ وَكَأَنَه فِي ذُهُولِ أمعقول هَذَا ؟! مَا تَقُولُ

إِنْ مِمَّا تَقُولُ وَاجْلُونَ

قَالَ الصِّغَارُ هَلْ هُم إيانا يُرَاقِبُونَ؟!

قَالَ أَحَدُهُمْ وَقَدْ كَانَ اِسْمُهِ السَّيِّدِ شِهَاب

وَ كَانَ رَجُلا قد تَخَطَّى مَرْحَلَةَ الشَّبَابِ

لِي هُنَا خَمْسة عَشْرَة عَاما

وَقَدْ نَعِمْتُ بِين جنباتها بِالسَّلَامِ

اِعْلَمُوا أَنَّ تِلْكَ الأَرْض هِيَ أَرْض الوِنَامِ

قَالَتْ النِّسَاءُ كَيْفَ وَقَدْ سَمِعَت شَيْخِنَا

قَالَ السَّيِّد شِهَابَ

أو لسنا نَحْنُ وَهُمْ وَكُلِّ هَذَا مِنْ خَلْقِ الديان

فعلي مَاذَا أَي مَخْلُوق يَدَانِ

فَإِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ مِنْ طِينٍ فَهُوَ مِنْ نَارٍ

أُنْظُرُوا أوليس خَلْقا مُخْتَلِفا تِلْكَ الأَشْجَارِ

البَهَائِمُ وَالطُّيُورُ والأزهار

وَلَكِنَّهَا جَمِيعًا تَوَحُّدُ الَقهار

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنْ مِنْ البَشَرِ مِنْ هُمْ مَنْ اِلْجَانَ أَشَّر

كَثِيرٌ مِنَّا لَمْ يَحْكِ حِكَايَتَهُ أَوْ يَقُصُّ مَأْسَاتَهُ

فَاسْمَعُونِي لَمْ أَكُنْ رَجُلا فَقِيرا وَلَا تَاجرا كَبِيرا بَلْ كُنْتَ عَلَى جَزِيرَتَيْ أَمِيرَ

حَوْلَي وَالخَدَمُ وَالمَالُ كَانَ وَفِيرا

وَلِي زَوْجُهُ بَيْنَ النِّسَاءِ أَغْنَاهُمْ

وَلَكِنَّ جَمَالُهَا كَانَ أَدْنَاهِمْ

وَقَدْ رَزَقَنِي اللهُ صَبِيا وَصَبِيَّة

وَحَمِدْتُ اللهَ فَقَدْ كَانَ ذُا طلة بهية

وَذَات يَوْم أَصَابَتِي وَعْكُة وَتَحَوَّلَتْ إِلَيَّ بِلِية

إِذَ أَصَابَ جِلْدِي دَاء وَوَجْهِي تَشَوُّهٍ وَحَارَ فِيه الأطباء وَلَمْ يَجْدُوا لَهُ دَوَاءً

وَنَفَرَ مِنِّي النَّاس أمَّا زَوْجَتُي فَقَدْ أَصَابَهَا مِنِّي الوِسْوَاس فَاِعْتَزَلْتَنِي وَإِذْا حَاوَلْتَ لَمْسَهَا نَهَرْتَنِي

وَلَمْ يَكُنْ مَعَي إلا جاريتي السَّمْرَاء سَمْرَاء

وَقَدْ عَابُوا عَلَيْهَا سَمَّارَهَا وَقَالُوا مَاهَمَّهَا إِذْ الدَّاءُ أَصَابَهَا. لَمْ تَسْتَنْكِفْ مِنِّي وَصَاحَبَتْنِي

وَلَمْ تَبْتَعِدْ كَمَا اِبْتَعَدَ الجَمِيعُ عَنِّي

وَذَات يَوْمٍ أَتَانِى حَكِيمٌ قَالَ هُنَاكَ فِي عُمْقِ الصَّحْرَاءِ نُبِعَ مَاء مَاءهَا دَوَاءٍ لأَيِّ دَاءٍ

وَرَحَلْت إِلَيَّ هُنَاكَ

وَمَرَّ عَلَى ثَلَاثِ شُهُورٍ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلِاسْتِشْفَاءِ

فَمَا أَدْرَكَتْ رَاحة وَلَا كَانَ شِفَاءَ

فَعِدَّتِ إِلَى جَزِيرَتِي. وَقَدْ تَسَاقُطَ جِلْدِي وَأَخْفَيْتُ عَنْ النَّاسِ وَجْهِي

وَفِي الطَّرِيق سَمِعْتُ لَغْوَ الحَدِيثِ بَيْنَ النَّاسِ

إِنَّهُ اليَوْمَ سَيَتِمُّ تَتْوِيج اِبْنِي وَلَمْ يَكُنْ مَعَي اِلسَمْرَاءُ وَكُنْتِ بِلَا حُرَّاس

فتسسلت لِلقِصَرِ مِنْ طَرِيقٍ لَا يَعْرِفُهُ إِلَا أَنَا

وَأُنْصِت سَمِعَتْ الخِدَمُ يَتَكَلَّمُونَ

بَعْضُهُمْ يُقَبِّلُ وَبَعْضُهُمْ مِنْ تَصَرُّفٍ زَوْجَتُي غَاضِبُونَ

قَالَ إِحْدَهُمْ الأَمِيرُ رِحَلٌ لَهُ شُهُور

وَتَخْشَى المَلِكَةُ إِنْ تَسُوء الأُمُورُ

سَتُوْلِيه وَتَكُون وَلية عَلَى الأَمِيرِ

فَأَصَابَنِي اِلَهِمْ. أَتَتَخَيَّلُونَ زَوْجَتَي مَاهَمَّهَا غِيَابِي؟

بَلْ طَمِعْت فِي المَلِكِ وَلَمْ تَسْأَلْ مَا بِيَّ

وَاِسْتَدَرْتُ رَاجَعَا وَقَدْ زَادَ هَمِّي وَعَذَابِي

وَسَأَلَتَنِي سَمْرَائِي مَاذَا الآنَ

جَلْسَتُ غاضبا وَقَدْ أَبْغَضَتْ البَشَرَ وَلَعَنَت الزَّمَانَ

فَكَّرْتُ وَقَرَّرْتُ الرَّحِيلَ

بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْت بِدَائِيا عَلِيلا

فَمَا أَصَابَنِي لَيْسَ بِالقَلِيلِ

وَاِعْلَمُوا أَنَّ جَزِيرَتَي لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا فِي المَاءِ

بَلْ هِيَ ثَلَاثُ جِهَاتٍ الرَّابِعَةُ عَلَى الصَّحْرَاءِ

وَقَدْ كَانَتْ القَوَافِلُ تَأْتِينَا شِتَاء

فَذَهَبْتُ لِمَكَانِهَا

وَطَلَبَتْ صُحْبَتَهَا وَنَشَرَت خَيْمَتَيْ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهَا

وَقَدْ أَصْبَحَتْ مزعز الأَرْكَانَ وَثَأَرَتْ ثَائِرَتَيْ كَأَنِيٌ بُرْكَانٌ

أَلَم بِرَأْسى شَدِيد وَبِدَنِي مُشْتَعِلٌ كَزُبَرِ الحَدِيدِ

فَذَهَبَت سمراء لِلحَادِي وَقَدْ كَانَ سَعْدُون

أَتَانى عَلَى عِجْلٍ. وَجَلَسَ بِجَانِبِيَّ وَقَدْ كُنْتُ أُتَمْتِم فِي هذيان وَمَرُّ يَوْمٌ وَيَوْمَانِ

حَتَّى بَرَّأْتُ فَجَلَسَ مَعِي وَقَالَ قَصّ عَلَى فَقَصَصْتُ مَا كَانَ قَالَ عَدٌّ وَأُطْلُبْ مَلِكَكَ وَكُنْ ثَابِت الجَنَانِ

قِلَّتُ مَافِي نَفْسِي حَاجُّهِ لِمَلَكٍ أَوْ سُلْطَانٍ

فَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ لَهُ أُمَّانِ

وَإِلَيَّ أَيْنَ تَنْوِي الرَّحِيل

لَا أَعْرِفُ فَقَدْ أُصْبِح تَفْكِيرِي مِنْ الِهِمْ بطِّىء ثَقِيل

هَلْ تَنْوِي الإِيَابَ إِذَا بَرَّأْتَ مِنْ الدَّاءِ؟

لَا أَقْسِم قَدْ عَافَتْ نَفْسِي تِلْكَ الحَيَاة وَمَا فِي نَفْسِيَّ لِلحَكَمِ اشتهاء

وَهَلْ اِخْتَرْتُ مَكَانَا ؟ قِلَّتِ مَعَكُمْ إِلي حَيْثُ تَشَاءُ؟

إِذَا سَأَصْحَبُكَ إِلَى مَكَانٍ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَهَّلا لِلإِحْسَانِ وَقَدْ عَرَضَ عَلَى المَكَانِ وَحَضَرْت وَمِعًى سَمْرَاء

وَلَمْ يَكُنْ إِلَا شَيْخِنَا وَزَوْجَتُهِ وَبنَاتهِ

فَاسَتقبلُنِي وَلَمْ يَسْأَلْنِى. فَاِسْتَقَرَّ بِي المَقَام

وَعَرَضْتُ عَلَى سمراء الزَّوَاجَ

وَلَمْ تَرْفُضْ بِرَغْمِ الدَّاء

وَرُحْتُ أَتَحَمَّمُ فِي مَاءِ الواحة كُلَّ مَسَاءٍ

وبرأت مِنْ كُلِّ دَاءٍ. وَلَمْ يَحْدُثْ فِيهَا مَا يُعَكِّرُ صَفْوهَا

وَلَمْ أَرَ شِيئا بَيْنَ جنباتها

فَشَيَاطِين الإنس أَقْسَى مِنْ شَيَاطِينَ اِلْجَنَ.

اِلْتَفَتَ لِهُمْ، الشَّيْخُ سَعْدُونُ. قَالَ أَسْمَعْتُمْ هُنَا وَاحَةَ الأُمَّانِ
وَسَيَطْرُدُ مِنْهَا مَنْ كَانَ للصحبة خَوَّان

وَاِعْلَمُوا أَنَّ الطَّرِيقَ لَا يعَلِّمُهُ إِلَّا اِثْنَانِ

أَنَا وَإِبْنِي وَهُوَ الحَادِي بُرْهَان

وَسَأَخْتَارُ مِنْ الوَاحَةِ مِنْ يَكُونُ ذَا عِلْمٍ

قَالَ أَمِيرُ أَنَا لَهَا كَمْ اِعْشَقْ العِلْمَ وَسَحِّرْ البَيَانَ

وَمُنْذُ أَتَيْت هنَا أَصْبِحْ اللَّيْلَ لِي خَلِيلا

لَقَدَّدَ حَدَّدْتُ بِالنُّجُومِ الطَّرِيقَ

وَمَتَى الطَّرِيقُ يَتَّسِعُ مَتَى بِضِيقٍ

فَاتَخِذَنِي لَكَ تِلْمِيذًا وَرَفِيقا

وَمِنْ عِلْمِكَ أَنْهَلُ وَلَنْ أَمِلْ أَوْ أَضْيَقُ

قَالَ لَكَ هَذَا واعلم أنك أنت الصبى المختار
فذات رحلة كان والدك معى وقد إلتقينا عرافة وقالت لنا بعض من الأخبار
منها إنِ حاتم مقدر له العذاب

وسيكون من أهله وخلان ضنهم أحباب
واهدته خاتما وقالت هذا بنك وسكون له دليل
ومقدر لهذا الإبن أن يخوض غمار الحياه نهارا وليلا
وَلِنَّا حَدِيثٌ يُطَوِّلُ وَكُلُّ شِئ بِأَوَانٍ

قَالَ سَمِيرُ يَا شَيْخِنَا لَمْ تُخْبِرْنَا

مَا كَانَ مِنْ أَمَرِّ الوَاحَةِ وَمَاذَا كَانَ فِيهَا مَاذَا اِلْتَقَيْتَ مَا قَصَّتْكِ مَعَ اِلْجَأْنَ؟!

أَتَسْأَلُ عَنْ مَا كَانَ مِنْ حِكَايَتِي؟

سَأَقُصُّ عَلَيْكُمْ غَدًا تَكْمِلَةَ قِصَّتِي

وَذَهَبَ كُل إِلَى مَهْجَعه لِيَنَامَ

وَلَكِنَّ قُلُوب سَاكِنِهَا فَقَدَتْ بَعْضَ الإِحْسَاسِ بِالأَمَانِ

إِذَ أَنَّ القِصَّةَ بِرَغْمِ غَرَابَتِهَا أَرْبَكَتْهُمْ

وَفِكْرَة إِنْ هُنَاكَ مَخْلُوقَات فِي أَلْوَاحِة شَغْلَتِهِمْ

هُنَاكَ مِنْ فَزَع وَهُنَاكَ مِنْ تَشَوُّق

وَأُقَبِّلُ الصُّبْح وَقَدْ كَانَ لَهُ مَذَاق غَرِيبٌ

كُلّ فِي عَمَلِهِ وَلَكِنَّهُ سَاهَمَ

يَتَلَفَّتُ وَيَبْحَث عَنْ صَوْتٍ أَوْ أَحَد العَلَائِمِ

وَتَسَارَعَتْ السَّاعَاتُ وَأَتَى ميعَادِ الطَّعَامَ وَالسُّمْر وَالكَلَام
وَجَلَسَ النَّاسُ فِي وُجُوم

وَلَا حَدِيثٌ بَيْنَهِمْ كأنمَا حطّ عَلَيْهُمْ الطَّيْر أَوْ ضَاعَ الوِئَام

تَلَفَّتَ حَاتِم وَقَدْ أَهَمَّهُ هَذَا القَلَقُ المَرْسُومُ

وَعَلَى وُجُوهِهِمْ الشَّكّ يَحُوم فَأَنْتَظِر حَتَّى اِنْتَهَى الطَّعَام
وَاِلْتَفُّوا دَوَائِرا للسمر أَوْ عَزْف الأَنْغَامِ

أَتَّجِه إِلَى وَسَطِ الدَّائِرَةَ عِنْدَ النَّارِ

وَصفُق بِيَدِهِ نَادِي اِنْصِتُوا يَا أَهْل الدِّيَارِ

فَتَوَقَّفَ كُل مِنْهُمْ عَنْ عَمَلِهِ وَالمُتَحَدِّثِ صَمْت وَاِسْتَدَارَ

مَا بِا لَكُمْ يَاأَهْلُ الوَاحَةُ لم طِير الخَوْف عَلَى رؤسكم حَامٍ وَأَي
شِي عَكَّرَ صَفْو حَيَاتِكمْ وَأَقْلَقَ مِنْكُمْ المَنَام

وَقَدْ عِشْتُمْ هُنَا سَنَوَاتٍ فِي أُمَّان

لَمْ يَمَسسّكُمْ ضُرٌّ وَقَدْ تَخَلَّصْت مِنْ الأَحْزَانِ

وَبِضْع كَلِمَاتٍ أَرْعَبَتْكُمْ وَحِكَايَةً وَلِآتِ أَرْبَكْتكُمْ

لَمَا هَلْ يَوْمًا أَصَابَ أَحَدُكُمْ سوء

فَلِي بَيْنَكُمْ أَكْثَر مِنْ شَهْرٍ وَكَأَنَّي خَرَجَتْ مِنْ أَرْضِ الشَّيْطَانِ وَأَسْكَنَنِي اللهُ أَرْض الجِنَانِ

فِيهَا النَّعِيم وَيَحُدُّهَا نَسِيم عَلِيلٌ وَبُسْتَان

فَتِلْكَ أَلْوَاحُة هِيَ مَكَانُ فَرٍّ مِنْ صروف البَشَر وَتَحَدِّي طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ

وَلَمْ أَجِدْ دِفئا إِلَّا بِيَنِ أَحْضَانِهَا فَلِنَشْكُرْ الوَاحِدَ الديان

لَا تَنَغَّصُوا عَلَيْكُمْ حَيَاتكُمْ وَلَا تُفْسِدُوا بَهجَة لَيْلَيْكُمْ وَأَيَّامَكُمْ وَأَنْتم يَا أَوْلَاد عِيشُوا فَمَا تَجِدُوهُ هُنَا شَيْءٌ مِنْ الخَيَالِ يُبْهِجُ قُلُوبَكُمْ

اِنْتَفَضْت أَمْ الغِلْمَان اِتَّجَهَتْ إِلَى حَاتِمَ وَأَمْسَكَتْ يَدَهُ وَقَالَتْ زَوْجَي قَدْ عَادَ لِنَّا الآنَ

هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي عِشْتُ مَعَهُ ردْحٍ مِنْ الزَّمَانِ

أَيْنَ كُنْت يانْصَفِي المَفْقُود

أَسْعِدْنِي أَنَّ إِلَيَّ بِكَامِلٍ حُضُورُكِ تَعَوَّدَ

وَتَضْاحَكُوا وَتكَلِّمُوا

وَجَلَسَا سَوِيًّا يَتَنَاجَيَانِ وَيَتَهَامَسَانِ

وَكُلا مِنْهُما بِحُضُورِ الآخَرِ نشوان

وَصَمْت بَعْدَ الوَقْتِ ثُمَّ قَالَ

بِرَغْمِ مَا كَانَ تَهْفُوا نَفْسِي لِلأَوْطَانِ

وَ أَتَمَنَّى أَنْ أَعُودَ وَأَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّ مَنْ خَانَ

يَا زَوْجِي أَنَا طَوَّعَ البَنَان

وَلَكِنَّ كَمَا تَرَى هُنَا بِأَلْوَاحِة الكُلّ لِلكُلِّ عضد.

وَوَقَّت الحَاجَه لَهُ سَنَد

فَلِنَجْلِسْ مَعَ الجَمِيعِ وَنَتَّفِقُ عَلَى مَا يُفِيد

قَالَ لَكَ مَا تُرِيدِينَ

فَالْتَفَتَ وَقَالَ يَا أَهَّلَ أَلْوَاحَة لِي عِنْدَكُمْ مَشْوَرَة

وَكَمَا تعْلَمُونَ الأَمرُّ بِالعَقْلِ مَا شورَة

قَالَ الشَّيْخُ سَعْدُونَ مَاذَا يَا أَبَا الغِلْمَانُ

أَتَمَنَّى أَنْ أَعُودَ إِلَى الدِّيَارِ

اِنْتَفَضَ يَابَنِي مَاذَا تَقُول

أَلَمْ تَعْرِفْ مَا بِيَنِنَا مِنْ اِتِّفَاقٍ وَكُل عَنْ كَلِمَتِهِ مَسْئُول؟

قَالَ أَبَا الغِلْمَانِ اِعْلَمْ أَنَّ السِّرَّ عِنْدَي فِي أُمَّانِ

اِسْتَفْهَمَ الشَّيْخ وَقَالَ خَبَّرَنِي مَا عِيب وَاحَتُنَا

سَارَعَ أَمِيرُ بِالقَوْلِ أَبِي الحَيَاة هُنَا أُمَّانِ

وَمَا أَرْوَع الصُّحْبَةِ والخلان

وَتَبْسِم عَلَى اِسْتِحْيَاءٍ

نَظَر وَالِدِهِ وَعَرَفَ مَافِي نَفْسهُ كَانَ يَنْظُرُ لِصَبِيَّة فِي الخَفَاءِ
قَالَ أتفهمون لَنْ أَشْعَرَ بالسعادة أَوْ الهَنَاء

إِلَا إِذَا اِسْتَرْدَدْتِ حَقِّي مِنْ هَؤُلَاءِ

تَنَهَّدَ الشَّيْخُ بِنِّي أَنَّ شَهْوَةَ الاِنْتِقَامِ نَارٌ تُدَمِّرُ الأَرْوَاح

فَتَخَلَّصْ مِنْهَا وَاُتْرُكْ الأَتْرَاحَ وَعِشْ الأَفْرَاحَ

يَا شَيْخِنَا إنَّ اللهَ يُسَبِّبُ الأَسْبَابَ

لِذَلِكَ أُرِيدُ الإِيَابَ

حَتَّى اِسْتَرَدَّ حَقِّي وَيَكُونُ بَيْنَي وَبَيْنَهِمْ حِسَاب

بِنِّي إِذَا تَشَوَّهَتْ نَفْسكَ فَلَا مَكَانَ لَكَ بَيْنَنَّا

فَهُنَا لَاَتَعَيَّش إلَا القُلُوب الآمنة

وَاللهِ مَا غَرَضِي الإنتِقَامِ وَلَكِنَّ أُرِيد أَنْ أُنْقِذَ مِنْهُمْ الأنام
صَمَتَ الشَّيْخُ ثُمَّ قَالَ

قَبْلَ أَنْ تَقَرَّرَ يَأْبَنِي إسْمَعُ قِصَّةَ أَلْوَاحِة وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ مَلَاذًا
مِنْ الآلَامِ. وَأَعْلَمُ أَنَّهَا قِصَّةٌ لَهَا العَجَب
وهل هى أغرب مما كان
نعم ففى الأوله نغوص فى نفوس البشر
وفى الثانية نغوص إلى عالم الأرض وسكانه
ولكن إياكم أن تظنوا إنهم الجان
بل هم أنواع وأشكال كأنهم بشر وفى أرض أخرى حيوان فى صورة إنسان وخلائق تعجب من طولها وآخره أقصر من الأقزام

صَمْت الجَمِيعُ فِي الإنْتِظَارِ
فقال لهم لقد أرهقنى الكلام وداعبت عينى المنام
فإلى الغد نكمل حديث عالم أغرب من الخيال وأعجب من الأحلام

إلى اللقاء فى عالم الأرضين السبع

ماجى صلاح